

استشهاد بأقوال الأئمة والعظماء مهما بلغت درجة صاحبها لا يلتفت إليها عند المحققين ولو حوت من اللآلئ كل عقد ثمين.

التمييز في الألبسة

ليس أغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختلاف في الأفكار كما تراد في الأديان بل تراد في اختلاف الهواء والماء وقد وفق الغرب إلى توحيد ألبسة أهله في القرون الأخيرة أما الشرق فلم يزل في تخالفه في ذلك على نحو ما كان عليه في القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية.

اختلاف المشاركة في ألبستهم قديم فقد كان للقضاة وللأجناد وللعلماء والعامّة ألبسة خاصة بهم بل كان اللباس تابعاً للأقاليم فابن الحجاز يلبس ما لا يلبسه ابن الشام وهكذا تجد لو طفت الأقاليم ودرست المد .

وكان لأهل الذمة في الإسلام لباس خاص بهم وهو من التحكمات السياسية التي دعا إليها العرب لا الدين وليس في الدين ما يدل على تمييز المسلمين بلباس خاص فقد اشترط الخليفة الثاني في كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمة أن يؤخذوا بلباس الغيار وهو علامة لهم كالزنانار ونحوه ولما تسط الفاتحون في مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما في كتاب نهاية الرتبة في الحسبة أن يأخذ الذميين يلبسه فإن كان يهودياً عمل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر وإن كان نصرانياً عمل في وسطه زناراً أو علق في حلقة صلياً وإن كانت امرأة ليست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود وإذا عبر الذمّي إلى الحمام ينبغي أن يكون في حلقة صلب أو طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليختر عن غيره.

وفي كتاب الخراج لأبي يوسف أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ

يعقده في وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلائسهم مضرية قبل وإن عمر بن الخطاب امر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي أي أن تكون قلائسهم طوالاً مضرية وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامل له فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذكر في أن كثيراً من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الحمام والرفر وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يصنع ذل فيما قبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة.

وفيما اطلعنا عليه من الكتاب إشارات طفيفة لاختلاف أزياء الذميين في العصور الإسلامية وما هذا الاختلاف في الحقيقة ناتج إلا من التحكم البارد غالباً. قال ابن الأثير في حوادث سنة ٢٣٥ أن المتوكل أمر أهل الذمة بلبس الطيالة العلية وشد الزنابير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرنين في مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس ممالكهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عملياً وضعهم من لبس المناطق وأمر بدم بيعهم المحدثه وبأخذ العشر من منازلهم وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان بهم في أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم وأن يظهروا في شعائهم صلباً وأن يستعملوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض وكتب في ذلك إلى الآفاق.

وقال الذهبي في حوادث ٣٩٨ وفيها هدم الحاكم كيسة القيامة بالقدس وكانت فيها أموال وجواهر ما لا يوصف وألزم النصارى بتعليق صلبان على صدورهم واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلاً بالدمشقي من خشب ومثال رأس العجل كالمدقة وزها رطل ونصف وأن يشدوا الأجراس في رقابهم عند دخول الحمامات قال وألزم الحاكم صاحب المغرب والحجاز ومصر والشام أهل الذمة

بالصلبان في أعناقهم وألبس اليهود العنائم السود نكاية واهنة لبني العباس قال ابن خلكان وفي سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم النصارى واليهود إلا الخيابرة بلبس العنائم السود وأن تحمل النصارى في أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرتال وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامي الخشب على وزن صلبان النصارى وأن يكون في أعناق إذا دخلوا الحمام الصلبان وفي أعناق اليهود الجلاجل لتمييزوا عن المسلمين.

قلنا وكان في الحاكم لوثة وجنة يأمر اليوم بأمر فينهي عنه في الغد. وذكر الذهبي في حوادث سنة معمنة أن النصارى واليهود ألبست بخصر والشام العنائم الزرق والصفراء واستمر ذلك. وسنة ٧٣٤ أُلزمت النصارى ببغداد بالغيار ثم نقصت كنانتهم ودياراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود.

وروى لسان الدين بن الخطيب أن اسمعيل بن فرج الخرجي من ملوك الأندلس اشتهر في إقامة الحدود وإرافة المسكرات وحظر تجلي القينات للجوال في الولايم وقصر طرهن على أجناسهن من الناس وأخذ لليهود الذمة بالترام سمة تميزهم وإشارة تشهرهم وليوفى حقهم من المعاملة التي أمر بها الشرع في الخطاب. والطرق وهو شواش (جمع شاشية) أصفر. وذكر صاحب المعجب في سيرة أبي يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن أنه أمر في آخر أيامه أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم وبدلاً من العنائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزلوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه عجب الله إلى أن غيرده أبو عبد الله بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة واستشفعوا

بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ واثنا حمل أبا يوسف على ما صنعه من أفرادهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به شكه في إسلامهم وكان يقول لو صح عندي إسلامهم لتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فينا للمسلمين ولكني متردد في أمرهم ولم تعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كيسة إنما اليهود عندنا يظهرن الإسلام ويصلون في المساجد ويقرون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وستنا والله أعلم بما تكنه صدورهم ونحوه بيوتهم اهـ.

وقال ابن أبي أصيبعة: حدثني الشيخ موفق الدين البوري الكتاب النصراني قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكرك أتى إلى دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وهو شاب على رأسه كوفية وتخفية صغيرة وهو لا يلبس جوخة ملوطة زرقاء زي أطباء الفرنج وقصد الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يخدمه ويتردد إليه لعله ينفعه فقال له هذا الزي الذي أنت عليه ما يمشي لك به حال في الطب في هذه الدولة بين المسلمين وإنما المصلحة أن تغير زيك وتلبس عادة الأطباء في بلادنا ثم أخرج له جبة واسعة عنابية وبقياراً مكحلاً وأمره أن يلبسهما.

قال ياقوت في معجم الأدباء في ترجمة أسعد بن المهذب ما يأتي: كان المهذب أبوه المعروف بالخطر مرتباً على ديوان الإقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم أسد الدين شيركوه في بدء أمره بمصرانه نصراني وأنه يتصرف في (عمله) بلا غبار فناه وأمره بغيار النصراني ورفع الذؤابة وشد الزنار عن الديوان فبادر هو وأولاده فأسلوا على يده فأقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه فقال فيه ابن الذروري:

لم يسلم الشيخ الخطير لرغبة في دين أحمد
بل ظن أن محاله ... يقي له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنه فدينه فالعرد أحمد

ولما أمر شركوه النصارى بلبس الغيار وإن يعمموا بغير عذبة قال عمارة اليميني:

يا أسد الدين ومن عدله ... يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غياراً شد أوساطنا ... فما الذي يوجب كشف القفا

هذا ما كان عليه الاختلاف في الأزياء بين أهل الوطن الواحد وأكثره كما ترى ناشيء
من ملوك وفقهاء متعصبين تعصب ظاهراً مثل المتوكل والحاكم بأمر الله ولم يسمع بأن
رجال الجد في الإسلام مثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين ونور الدين تحكموا هذه
التحكيمات والله أعلم.

الجغرافيا والعرب

لم يترك العرب أيام حضارتهم فرعاً من فروع العلوم النافعة في قيام مجتمعهم إلا وتوفر
أفراد منهم عليه. وعلم الجغرافيا هو أحد تلك العلوم ولم يكن لهم به عهد في الجاهلية
كالشعر والرواية والأدب والخطب وإذا ذكروا بعض أسماء البلدان الجاورة لهم فإنما
يذكرونها بالعرض لا تشعر بعرفة ولا تتم عن اشغال.

وكان أول الكتب التي نقلوها إلى لسانهم كتب بطليموس اليوناني في الجغرافيا ومن
أول الأعمال الجغرافية العلمية التي تمت على يد علمانهم هو أن المأمون أمر محمد بن
موسى بن شاكر وأخويه أحمد والحسن بتحقيق طول خط نصف البار لمعرفة محيط
الكرة الأرضية فقاموا أحد خطوط الطول في سهل سنجار ثم أعادوا المقياس ثانياً في
وطات الكوفة فثبت لديهم كروية الأرض وعرفوا محيطها.